علي وجيه يكتب: عن "٢٠٠٦" التي لا تنقضي

أنا من جيل مسكين، مثل جيل أبي وجدّي، وجيل ابني، وأبنائه الذين سيأتون لاحقاً، لكنني أنتمي لجيلٍ حملَ الجنسيّتين، إحداهما باسمٍ شيعيّ وأخرى باسمٍ سنّي، ولعلّني من جيل التقى أبناؤه بعضاً ببعض في ثلاّجات الطبّ العدليّ، أكثر مما التقوا في مقهى.

الباكون مع الحرب العراقية- الإيرانية، ثم الذين دمغَ صدّام وبوش على طفولتهم بالعوز والشحّة منتصف التسعينات، فاجأتهم الحرب الأهلية مع شواربهم الخُضر الزغب، ومَن نجا من الحرب، كان الأشد تضرّراً، تلسعه الصور الجماعية، وفي أحلامه أصدقاء كثيرون بلا رؤوس.

أنا من جيلٍ شهدَ المناطق السكنيّة المختلطة، قبل أن يحتمي خائفو السنّة والشيعة بنهاية المطاف بمسلّحي السنّة والشيعة، لِذا لديّ في عهدة الله ضحايا كثيرون، سنة وشيعة، والدمعة التي سالت على الاثنين كانت مالحة بذات الدرجة.

كانت السيّارات مرعبة، الملثّمون كذلك، أسماء المناطق أيضاً، كانوا يفتّشون الجيوب والملامح واللهجات، إن لم تبدو لهجتك واضحة كما يجب، فيُمكن أن تقعَ ببساطة تحت رصاصة الفريق "أ" أو "ب".

شممتُ مرّة، رائحة الجثث من الطب العدليّ، على بعد ٦ بنايات منها، في "مدينة الطب"، حين تحوّلت حتى الكلاب السائبة في محيطها إلى مفترسة، لأنها كانت تتذوّق ما تبقى من لحم ضحايا المفخخات المنقولين في سيّارات الشرطة، قبل أن تُزرع بباب الطب العدلي شجرة الأمّهات الباكيات، إلى جانب

طابور الكيّات التي تعلوها توابيتُ صفراء، لتتجه إلى النجف الأشرف أو محمّد السكران، المقبرتين المزدهرتين.

ليست ذكريات جميلة، وإن كنتُ أفضّل التذكير والإعادة كي لا يكرر الجيلان اللذان جاءا بعد جيلي الأخطاء، لا أفضّل استعادة ذلك، وأحاول أن أتجنّب حتى صور أصدقائي الذين جعلونا أكثر موتاً منهم، لكن تلك الحقبة، وبعد سيل المفخخات، ثم ما يُسمى بـ"توازن الرعب"، وليس انتهاءً بالذروة: سبايكر، سقوط الموصل، الخسفة، قلنا إن الجميع تعلّم الدرس، والحمد على هؤلاء الضحايا الذين منحونا الهدوء القليل، حيث صار الكلام الطائفيّ عيباً، وأن دماء الجميع سالت في معركة واحدة عادلة، ثم جاءت تشرين لتُنهي ذلك الجدل، بزراعة خطاب وطنيّ موحّد، لكن العراق و"ضرباته" يصرّ على مفاجئتك باستمرار، ويكفي لجملةٍ لرادود، أن تعيد لك كل الفيلم القديم، الفيلم الذي خدش روحك جميعها.

قبل قليل، استمتعتُ لنحو ٢٠ متحدثاً وهم ينقاشون حديث "رضاع الكبير"، محاولةً لإثبات مقولة الرادود، وأن الصحابة ليسوا "نجوماً بأيّهم اقتديتم اهتديتم"، وعاد الآخرون ليقولوا "إنكم تحرفون القرآن وتقولون بعدم تمامه"، فيما استعاد بعض منهم صدام، وآخرون استعادوا الزرقاوي، وعاد تلك السنة العوراء الى الواجهة بذلك الخطاب، الذي انتشر بكلّ المنصّات، مصحوباً بذات الأصوات التي تخيّلنا أنها تغيّرت بعد ٢٠٠٦، بعد أن نام القتيلان السنيّ والشيعيّ على ذات السَدْية في الطب العدلي، حين كانت الأمهات تبكيان ذات الدموع، بذات الأنين.

وكأن هذا العام يرفض الانقضاء، وأن الضباع مستعدة لتكراره بشكل مستمر، وأيّ مشروع أفضل من الفوضى التي تتحوّل إلى سلّم لكثيرين؟ سلّم غنى وشهرة ورأسمال رمزي يديم ذلك المشروع السياسي العظيم الذي يحمل شعار: نحن جيّدون لأن الآخرين سيئون، نحن نحميك لأنهم يريدون قتلك.

يالهذا العام الأعور الذي يتكرر في كل عام، إلى آخر العصر والزمان!